

المقدمة

قبل أن نتطرق إلى مكانة المرأة ومشاكلها في بدايات العصر المعاصر في إيران والعراق، وقبل أن نطرح وجهات نظر الشاعر الإيراني «محمد تقى بهار» والشاعر العراقي «معروف عبدالغنى الرصافي» حولها، نلقى نظرة عابرة إلى ما للمرأة من المكانة الاجتماعية في العصرين الجاهلي والإسلامي لنعرض نظرة قياسية لمواصلة البحث.

فإذا تصفّحنا تاريخ العرب وجدنا أنّ المرأة لم تحتلّ مكانة لائقة لها في المجتمع الجاهلي. فلو ترك بعض المستنثيات التاريخية لنجد السيطرة التامة للرجل على حياتها الفرديّة والاجتماعيّة. فاستيلاء الرؤية الماديّة على المرأة وعدّها شأنًا من الشؤون العرضيّة للفرد والأهل والقبيلة، زادت المجتمع تعصّباً وغيره لها ممّا أدّى إلى تقييدها قيدياً شاملاً وجعلت الرجل الجاهلي يعدّ ولادة البنات عاراً له. ينفّر منها نفرةً قادته إلى ارتكاب أشنع جنایة أصبحت وصمة عار سجّلها التاريخ في الخواطر البشرية كوسام لتلك الحقبة الزمنيّة وهي جنایة وأد البنات، وهذه مايشير إليه القرآن موبّخاً الجاهليين قائلاً: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل: ٥٨)

فهذه الرؤية السلبية للمرأة دفعت الجاهليين يدعون على البنات إذا تزوّجن بمن ليس من قبيلتهم قائلين لها: «لأيسرت ولاأذكرت فإنك تدنين البعداء وتلدين الأعداء.» (الجاحظ، ١٩٦٨م: ١٨٤) فإذا وقع الزواج بين أفراد القبيلة يدعون لهنّ قائلين: «أيسرت وأذكرت ولا أنست.» (الجاحظ، ١٩٦٨: ١٨٤)

إلا أنّ هذه الرؤية للمرأة تعيّرت بظهور الإسلام. ففرض الفرائض الدينيّة للمرأة وللرجل، وجعل الثواب للطاعة والعذاب للعصيان لكلّ منهما دون فرق بينهما يدلّ على كون المرأة مختارة متساوية مع الرجل في حقوقها حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥)

فارتقت المرأة مكانة إنسانيّة فأصبحت ترث بعد أن كانت كالبضائع تورث، وعهدت إليها مسؤوليات في الأسرة والمجتمع، ووضعت لها الحقوق في كثير من الشؤون خاصّة في شؤون الأسرة، وعيّن لها المهر في الزواج. ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (نساء: ٤)



كما أنّ في القرآن الكريم ما يدلُّنا على تعليم المرأة حيث يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (زمر: ٩) فالآية تشمل أبناء البشر كلّهم؛ لأنّها إذا شملت الرجل دون المرأة اقتضى الأمر أن نقبل أنّ الجاهلات والعالمات سواء في رأى القرآن ولكنّ الحكمة الإلهية لا تقتضى ذلك بل تقتضى أن يفوق كلّ عالم وعالمة على كلّ جاهل وجاهلة.

المرأة، مكانتها ومشاكلها في المجتمعين الإيراني والعراقي

أما مشاكل المرأة في المجتمع الإيراني فإنّها لم تُعرَف إلاّ بعد إعلان الدستور فيها. فلم يشعر أحد قبله بحاجتها إلى التعلّم والمساهمة في الشؤون الاجتماعية. فكانت المرأة لا تمتلك شيئاً ولا تبدى رأياً ولا تتدخل في شأن إلاّ باستأذان من زوجها أو لكرامة منه لها. وأسوأ حالة لها هي أنّها كانت تفقد زوجها أو كان الرجل يطلقها والعادات السائدة على المجتمع لا تسمح لها بالعمل فتبقى هي والفقر يضيق عليها وبعصر حياتها.

فتؤلّنا اليوم حالة المرأة في تلك الحقبة من الزمن إلاّ أنّ الحالة لم تكن مؤلمة آنذاك. فإنّ العادات الاجتماعية السيئة كانت تسود على النساء وتربّيها للخضوع لتلك الحالة. فكيف تشكو ممّا يجرى عليها وهي لا تعرف حقّها وتعترف بأنّ الحالة التي تعيش فيها هي الحالة الطبيعيّة للأنوثة؟

ويجدد بنا ألاّ تغفل دور العصبية في تأييد هذه الرؤية وترسيخها. فهناك بعض من الناس يتعاملون في المجتمع كأنّهم يرون أنّ الحجاب هو كلّ الدين، وهذا لا يعنى أنّنا نؤيد السفور، بل نمثّل الجو السائد على قسم كبير من أفراد المجتمع يقوم بتربية الجيل القادم للبلاد، ذلك القسم الذي قد افقد له الجهل والأمية إمكانية النضوج الفكري.

وفي هذه الظروف تواجه المرأة الإيرانية إعلان الدستور إلاّ أنّ العلاقات الإيرانية الأروبية التي كانت لها دور كبير في الثورة الإيرانية لم تلعب دورها في مجال المرأة كما لعبت في مجالات أخرى لما كان بين الثقافتين من اختلاف شاسع في هذا المجال. فظهر بعض من متخرّجي الجامعات الأروبية والمتأثرين بثقافتها يرون الحجاب للمرأة ذريعة لإبعادها عن النشاطات الاجتماعية والتربوية داعين إلى السفور. فمن هذا المنطلق

صودرت صحف مثل: «صور إسرافيل، جبل المتين، مساوات، وإيران نو.» (آدميت وناطق، ١٣٤٩ش: ١٥٧) فيها مقالات يدافع الكاتب فيها بزعمه عن حقوق المرأة.

ومن دعاة السفور في إيران هي المرأة المتقفة بالثقافة الغربية في القصر القاجارى اسمها «توران تاج السلطنة». فهي تنتقد مجتمعها قائلة: «إنّ المرأة الإيرانية بعيدة عن العلم والحضارة لا تبحث عن حقّها فإنّي يأخذني الحزن والضجر عندما أراها تكتسب الأخلاق السيّئة طوال عمرها.» (آدميت وناطق، ١٣٤٠ش: ١٥٧)

مع كل هذه المساعي والجهود الإعلامية لحرية المرأة وتربيتها نرى أنّ الشعب الإيراني لم يتأثر بها؛ لأنّ جماهير الشعب كانوا يعملون على أساس عاداتهم ومعتقداتهم لا على أساس هذه المساعي ونزعات أصحابها. فلانرى إلّا إقبال قليل من بنات الأغنياء وبعض رجال الحكومة.

أمّا حالة المرأة في العراق فلم تكن بأحسن ممّا كانت في إيران لتشابه الثقافتين في إيران والعراق. فيشير إلى ذلك يوسف عزالدين قائلاً: فلايسمح لها بالخروج من الدار إلّا في النهار وتحت مراقبة شديدة، وكلّما كنّا نرى امرأة مسلمة تمرّ في السوق بل إنّ مجرد سماع العراقيين ذلك يهزّ أعصابهم ويخيفهم. وإذا أرادت الخروج كانت تسدل عليها العباءة السوداء أو العباءتين وتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شئ وعليها أن تمر في الدروب الضيقة والأزقة المتعرجة وتتجنّب المحلّات العامّة والمقاهي وإذا لم يكن غير طريق واحد كانت أمّهاتنا يطلبن إلينا أن نسبقهنّ إلى المحلّ الذي سنزورها كيلا يعرف الرجال من مصاحبتنا لها هويتهم. (عزالدين، ١٩٦٥م: ٢٣٨)

فالمراة العراقية لم تتخلّص من سيطرة العصبية. فكون الرجل حرّاً في تعدّد الزوجات دون عناية إلى عواطف المرأة أو تطليقها، وإكراه البنات في الزواج أو تزويجهنّ بالشيوخ، والصدّ عن تعليمهنّ كلّها صورة صادقة عمّا يسود على المرأة العراقية.

أمّا بعد إعلان الدستور العثماني والدعوة إلى الديمقراطية فتأثر عددٌ من الناس بالأفكار الجديدة فقاموا ضد الظروف السائدة على المرأة العراقية وعدّوها ظلماً عليها. من هؤلاء المتأثرين بالآراء الجديدة «جميل صدقي الزهاوي» الذي كتب سنة ١٩١٠م. مقالة عنوانها «المراة والدفاع عنها» ادّعى فيها أنّ المسلمين فسحوا المجال أمام الرجل



للظلم على المرأة. فهو يطلقها ويتزوج من أخرى والأولى في بيته، أو ينيب مكانها أخرى ويترك الأولى مع أولاده متى يريد دون أن يرحمها غير مهتمّ بأينها وبكائها. فلماذا لا يسمح القانون للمرأة بالطلاق حتى تتخلص من شره؟ فيعتمد الزهاوي إلى الآية: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَنَّ بِالْمَعْرُوفِ B» (البقرة: ٢٢٨) ويدعو المسلمين بذلك للاعتراف بحق المرأة في الطلاق لتعميم المساواة في المجتمع. (الوردى، ١٣٧١ش، ج ٣: ١٧٩)

وتصف صحيفة «الرقيب» حالة المرأة العراقية قائلة: «إنّ حالة المرأة في مدينة بغداد حالة يستحبي القلم من تحريرها، لأنّه لا يوجد بينها واحدة من عشرة آلاف من يحسن القراءة والسبب الأعظم هو تعصّب سادتنا علماء الدين ضدّ تعليمهنّ». (عزالدين، ١٩٦٥: ٢٤٠)

ويجب أن لانعيب على علماء الدين قلقهم تجاه الآراء الجديدة في المرأة. فالزمان لم يطل على هذه الأفكار حتى ظهرت أول راقصة في مقهى ساحة «الميدان» ببغداد، وكثر عدد هذه المقاهي بعد ربح صاحب هذا المقهى. (الوردى، ١٣٧١ش، ج ٢: ٢٥٣) وكان من الأحسن أن لا يغفل قلق العلماء عمّا كان لتعليم المرأة من فوائد في تنمية البلاد وتقديمه العلمية والثقافية.

وبذلك انتهى الامر إلى أنّ المتجدّدين المتطرّفين زعموا حجاب المرأة حاجزاً كبيراً حيال الأفكار الجديدة فدعوا إلى سفورها. أمّا المعتدليون من المفكرين المحدثين فقد حصروا السفور في كشف وجه المرأة حتى لا يثيروا مشاعر الشعب وعواطفهم فنادوا إلى تعليم المرأة وصيانتها معاً. كما ظهر عدد آخر منهم يدعون إلى السفور بعد ارتقاء مستوى أشراف المرأة بأحداث المجتمع. (عزالدين، ١٩٦٥م: ٢٠٤)

وللصّراع بين المتجدّدين والمقلّدين حول المرأة أثر كبير في الشعراء منهم الشاعر الإيراني «محمدتقي بهار» الملقب بملك الشعراء، والشاعر العراقي «معروف عبدالغنى الرفاعي». فنحن ندرس فيما يلي رؤيتهما في المرأة ومدى تأثرهما بالأفكار القديمة والجديدة.

المرأة في شعر «بهار» و«الرصافي»

قد نشأ «بهار» في أسرة مهتمة بالتقاليد والعادات. فلم يخضع لآراء المتجددين حول المرأة. فكانت رؤيته في المرأة رؤية تقليدية. فيرى أنها كائنة مستغربة مجهولة لا يمكن معرفتها غايتها أن تلد وتربي. فيقول:

راست خواهي زنان معمايند	بيچ در بيچ ولاي برلايند
زن بود چون پياز تو در تو	كس ندارد خبر از باطن او
خويش را صدقلم بزك كردن	غايتش زادن است و پروردن

(بهار، ج ٢: ١٤٨)

كما أن «بهار» ينظر إلى المرأة ككائنة تحبسها حواسها الخمسة لا تعرف سوى التبختر والتجميل. ففي رأيه أن النساء كلهن مشتركة في هذه الصفات ولا ينافي ذلك كون المرأة مثقفة عالمة أو غير مثقفة جاهلة:

زن بقيد حواس خمس دراست	زن نمودار ساده بشر است
زن اگر جاهل است اگر داناست	خودپسنداست وخويشتن آراست
كار او با جمال وزيبايي است	هنر و پيشه اش خودآرائي است

(المصدر نفسه: ١٤٦)

كذلك يرى الشاعر أن استيلاء الحواس الخمسة على المرأة حولتها إلى شخصية قلقة مضطربة ترجح الهدوء والسكون لا تخضع لكل ما يزيدا ارتباكاً:

پيروامن و حفظ آرامي است خصم بي نظمي و بياندامي است

(المصدر نفسه: ٧٤)

وفي مكان آخر من شعره يرى للمرأة شخصية متحفظة تنفر من كل تغيير وتحويل يشوه أمنها ويسبب قلقها ويعتقد أن رفقتها الذاتية هي سبب ارتباكها الدائم مما يؤدي إلى انصرافها عن صواب الأمور:

هست بالطبع زن محافظه كار	هم ز تحقيق و بحث در آزار
هست اعصاب زن لطيف ورقيق	ميگرزد ز بحث و از تحقيق

(المصدر نفسه: ٧٤)



التأمل في الأمثلة السابقة يدلنا على رؤية «بهار» التقليدية للمرأة. فإنّ السطحيّة والارتباك والقلق والرفقة وعدم التصبّر في الأمور كلّها من ميّزات شخصيّة المرأة في أشعاره. فهذه الرؤية واضحة أيضاً عندما يصف زوجته قائلاً:

وآن خاتون كاوست مادر اطفال كدبانوى منزل است ونيك اختر
زير نظر وى است هر چيزى از مطبخ و از اطاق واز دفتر

(المصدر نفسه: ٤٨١)

إلا أنّ ماسبق من القول ليس بمعنى أنّه يعارض التجدد للمرأة بل يدعوها ألاّ يُغفلها الجمال الظاهري عن استكمال شخصيّتها. فإنّ القليل من التقدّم العلمي أفضل لها بكثير من الجمال الظاهري. فالدلال لا يليق للمرأة إلاّ إذا اقترن بالعلم والفن فيقول:

تكيه نمای بحسن وجمال ای دختر سعی کن در طلب علم وكمال ای دختر
ذرّه‌ای علم اگرت در وسط مغز بود به که در کنج لب ت دانهی خال ای دختر
بی هنر نیست مؤثر صفت غنچ ودلال باهنر جلوه کند غنچ ودلال ای دختر

(المصدر نفسه: ٤٥٧)

فهذه الرؤية التقليدية تقترب من التجديد وتّضح أكثر اتّضاحاً عندما يرى الشاعر أنّ النساء يشكّلن قسماً كبيراً من المجتمع. فضعفهنّ ينتهي إلى أنّ يفقد المجتمع قسماً كبيراً من مقدراته. فيدعوهنّ لئلاّ يخضعن للجهل وأنّ يغتنمن الفرصة المتاحة لاكتساب العلم والفن مع صيانتهم عفتهم، ويعتقد أنّ العلم إذا اقترن بالعفة ارتقى بالأجيال القادمة لأنّ النساء هنّ أمّهات للجيل القادم:

دريغاگرتوبا اين هوش وادراك به جهل ازاين فزونتر پائی ای زن
دريغاگرت حساب خود وطن را به نيمه تن فلج فرمائی ای زن
سوی علم وهنربشتاب وكن شكر كه در اين دوره والائى ای زن
حجاب شرم وعفت بيشتر كن كنون كآزاد ره پيمائى ای زن
بكار علم وعفت كوش امروز كه مام مردم فردائى ای زن

(المصدر نفسه: ٥٨٩)

كما أنّ الشاعر يدعو إلى تربية المرأة وإثارة قوة نفسيّة مانعة فيها ويرى أنّ العلم



والوعى النفسى هما أفضل حجاب للمرأة وأنّ الحجاب لا يصونها من الفساد مادام لا يفتن بالعلم والوعى:

حفظ ناموس زمعجرتوان خواست بهار كه زن آزادتر اندر پس معجر باشد
(المصدر نفسه: ٥٧٧)

وكما نعرف أنّ الشاعر كان يعيش في عصر تعرّف الإيرانيين بالظواهر الجديدة في العالم. فقد شاهد التقليد اللاواعى الأعمى للثقافات الغربية عند بعض النساء منها تقصير النساء شعورهنّ. فإنّه شاعر ذوزعة تقليدية يرى شعر النساء رمزاً للجمال ومثيراً لمشاعر الشعراء المقلّدين، فينشد:

شداين مد درجهان مقبول هر جا زنان گيسوى مشك افشان بريدند
به ايران هم سرايت كرد اين كار زنان فرموده شيطان شنيدند
طلائين طره و مشكين كلاله درو كردند و قلب ما دريدند

(المصدر نفسه: ٥٢٣)

كذلك نراه يخالف الحفلات التي يختلط فيها النساء بالرجال وهنّ سافرات الوجوه وهو يقول:

كدبانوان ودختركان وعروسكان درنزدغير پرده ز رخسار ميكشند
ازبس غريو وهلهله گويى ميان جمع نايب حسين رابه سردار ميكشند

(المصدر نفسه: ٥٩٣)

فإنّ ماضى من الشواهد يدلّ على أنّ «بهار» عندما يتحدّث عن المرأة وشؤونها يمزج التقليد بالتجدّد ويحدّر من الاتّباع الأعمى للثقافات الغربية ويدعو المرأة إلى التعلم والعفّة والوعى.

أمّا الرصافى فإنّه يتأثر بالأفكار الجديدة حول المرأة. فيدعو إلى تغيير الرؤية في المرأة ويهجم على حبسها في البيوت لصيانتها ويعتقد أنّ عدم تدخّل المرأة في الشؤون الاجتماعية وتحقير مكانتها إهانة للأمّهات وصدّ عن تقدّمهنّ الفكرى. فإحالة تربية الجيل القادم إلى أمّهات مهانة تُنتج مجتمعاً خاصعاً للذلل، فيقول:

لقد حكّموا العادات عدت لهم بمنزلة الأقياد للأسراء



وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي أُمُورِهِمْ
لَقَدْ غَمَطُوا حَقَّ النَّسَاءِ فَشَدَّدُوا
وَقَدْ الزَّمُوهُنَّ الْحِجَابَ وَأَنْكَرُوا
أَضَاقُوا عَلَيْهِنَّ الْفَضَاءَ كَأَنَّهُمْ
قَدْ انْتَبَذُوا عَنْهُنَّ فِي الْعَيْشِ جَانِبًا
أَلَمْ تَرَهُمْ أَمَسُوا عَبِيدًا لِأَنَّهُمْ
وَهَانَ عَلَيْهِمْ حِينَ هَانَتْ نِسَاؤُهُمْ

(الرصافي، ٢٠٠٠م، ج ٢: ٣٣٣)

كما أنه يدافع عن المرأة مستنداً على العقل ومستندلاً به. فَيَبْرُءُ الْمَرْأَةَ مِمَّا تُتَّهَمُ بِهِ
من النقص في عقلها ويعتقد أن النقص في عقل المرأة يتجذر في مجتمع يقوده الرجال.
بعبارة أخرى أن ما ينسب للمرأة من النقص في عقلها هو ناتج عن النقص في عقل
الرجال وتخطيطهم للمجتمع. فينشد قائلاً:

يَقُولُونَ لِي إِنَّ النَّسَاءَ نَوَاقِصُ
إِذَا النَّخْلَةَ الْعَيْطَاءُ أَصْبَحَ طَلْعُهَا
وَلَكِنْ عَلَى الْجِدْعِ الَّذِي هُونَابَتْ

و يُدْلُونَ فِيهَا هُمْ يَقُولُونَ بِالسَّمْعِ
ضَعِيفًا فَلَيْسَ اللَّوْمُ عِنْدِي عَلَى الطَّلَعِ
بِمَنْتِ سُوءٍ فَالْتَقِصْتُ فِي الْجِدْعِ

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٤١)

والشاعر كذلك يكشف عن مستوى دور المرأة في استكمال الرجال وتقديمهم ليشجع
الرجال للاعتراف بمكانة المرأة وأهمية تربيته، فيقول:

هَلْ يَعْلَمُ الشَّرْقِيُّ أَنَّ حَيَاتَهُ
فَإِذَا ادَّعَيْتَ تَقَدُّمًا لِرِجَالِهِ
مِنْ أَيْنَ يَنْهَضُ قَائِمًا مَنْ نِصْفُهُ
كَيْفَ الْبَقَاءُ لَهُ بَغَيْرِ تَنَاسُبِ

تَعْلُوا إِذَا رَبَّى الْبَنَاتِ وَهَدَّبَا
جَاءَ التَّأَخُّرُ فِي النَّسَاءِ مُكْذَّبَا
يَشْكُو السَّقَامَ بِفَالِجٍ مُتَوَصِّبَا
وَالدَّهْرُ حَخَّصَ بِالْبَقَاءِ الْأَنْسَبَا

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٤٨)

فهو يرى الأمهات مربية لأبناء الشعب ويعتقد أن الأم هي مقر للعاطفة ومدرسة تربي

الشعب:

فَحِضْنُ الْأُمِّ مَدْرَسَةٌ تَسَامَتْ
بِتَرْبِيَةِ الْبَنِينَ أَوْ الْبَنَاتِ
فِيَا صَدْرَ الْفَتَاتِ رَحِبْتَ صَدْرًا
فَأَنْتَ مَقْرَأَسْنَى الْعَاطِفَاتِ

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٥١)

أما العادة الاجتماعية الأخرى التي يهجم عليها الرصافي ويخالفها هي كبت حرية البنات عن اختيارها للزوج. فلا يرى عليهن عيباً في عصيانهن على إكراههن في الزواج. بل يدعمن في ذلك ويعتقد أن المحبة هي أساس الزواج لا الثروة والمال:

فَإِذَا رَفَضْتَ فَمَا عَلَيْكَ بَرَفْضِهِ
عَارٌ وَإِنْ هَاجَ الْوَلِيُّ وَأَغْضَبَا
إِنَّ الْكَرِيمَةَ فِي الزَّوْجِ لِحُرَّةٌ
وَالْحُرُّ لِأَبَى أَنْ لَعَلَّشَ مُدْبَدْبَا
قَلْبَ الْفَتَاةِ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يُشْتَرَى
بِالْمَالِ، لَكِنْ بِالْمَحَبَّةِ يُجْتَبَى

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٤٥)

والمعروف أن الشاعر عاش في مجتمع يسود فيه الفقر مما دفع البعض إلى إكراه بناتهم على الزواج بالشيوخ الأغنياء طمعاً في ثروتهم ومالهم، فيحزن الشاعر ويخاطب البنات صارخاً:

ظَلْمُوكِ أَيْتَهَا الْفَتَاةُ بِجَهْلِهِمْ
إِذَا كَرِهُوكِ عَلَى الزَّوْاجِ بِأَشْيِبَا
طَمَعُوا بِوَفْرِ الْمَالِ فَأَخْجَلُوا
بِفُضُولِ هَاتِيكِ الْمَطَامِعِ أَشْعَبَا

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٤٤)

والشاعر يدعو إلى ترقية مكانة المرأة وتنقيتها موضحاً دور المرأة الاجتماعي. فيصمد في وجه من يرى جهلها عفة لها ويدعى أن كون الرجال غير مهذبين هو السبب في حبس المرأة في البيوت وتحقيرها. فإذا تهذب الرجل ما أفسد سفور المرأة المجتمع الإنساني. كما يرى التهذيب أولى للمرأة من الحجاب فيقول:

قُلْ لِلأُولَى ضَرَبُوا الْحِجَابَ عَلَى النَّسَا
ع فَتَعْلَمُونَ بِمَا جَرَى تَحْتَ الْعَبَا
شَرَفَ الْمَلِيحَةِ أَنْ تَكُونَ أَدِيبَةً
وَحِجَابَهَا فِي النَّاسِ أَنْ تَتَهَذَّبَا
وَاللَّوْمُ أَجْمَعُ أَنْ تَكُونَ نَسَاؤَنَا
مِثْلَ النَّعَاجِ وَأَنْ نَكُونَ الْأَذْوَبَا

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٤٧)

كما أن الشاعر يدعو المرأة إلى التعلّم فيرى اكتساب العلم فريضة على كل امرأة



ورجل قائلاً:

لقد كذبوا على الإسلام كذباً
أليس العلم في الإسلام فرضاً
تزول الشَّمُّ منه مُزَلزلاتِ
على أبنائه وعلى البناتِ؟

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٥٤)

والشاعر يتأسّف عندما يرى أبناء الصين يحترمون المرأة وهي لا تكرم في بلاده ويعتقد أنّ تكريم المرأة وحقوقها هو من الدين. فمن يدّعي الدين ولا يحترم المرأة ولا يراعي حقها فليس بالمسلم المتدين. فيقول:

نحن السفوريين أعلمُ بالذي
أ يكون ما شرع النبي محمد
حتى رجال الصّين تحترم النسا
كلا ولكن عادة همجيّة
شَرَعَ النبي محمد من دين
شيئاً يخالف شريعة التّمدن
أفحن ننقص عن رجال الصّين
جعلتكم حرباً لكلّ حَسِين

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٦٩)

ومن العادات الاجتماعية الأخرى التي تحدّث عنها الرصافي وعدّها سبباً من أسباب صعوبة العيش للمرأة في مجتمعه هي اكتساب المرأة قوتها بعمل يدها. فهو يصوّر أرملة لا تسمح لها العادات الاجتماعية بالعمل وتزيد حياتها صعوبة. فالشاعر لا يخضع أمام هذه العادات التي تجعل المرأة تابعة لزوجها في تكاليفها للحياة. فيعترف للمرأة بالعمل ويرى نشاطها الاجتماعي وعملها من أجل ارتزاقها ضمانةً لأمنها. فيقول:

عابَ عليها قومها ضلّة
من أيّ وجه تبتغى رزقها
وكيف والقوم رأوا سعيها
وكم فتاة فقدت بعلمها
فأنقطعت في العيش أسبابها
أن تكسب القوت وأن تطعمه
وطرقها بالجهل مستبهمه
في طلب الرزق من الملامه
من بعد ما قد ولدت توءمه
وأصبحت للبويس مستسلمه

(المصدر نفسه، ج ٢: ٣٦٠)

ومما تحمّل العادات الاجتماعية السيئة على المرأة - إضافة إلى ماسبق - هو الرؤية المتعصبة إلى الدين حول المرأة ممّا يجعل المرأة متهمّة ويوسع المجال للرجال ليطلقوها

متى شاؤوا. فينزه الشاعر الدين من هذه الرؤية السيئة ويراها سبباً لخلق المصائب للمرأة ويستنكر العصبية التي تجعل حبل الزواج سهل الحل والانتقاطع. فينشد قائلاً:

ألا قُلْ في الطلاقِ لمُوفِعيهِ بما في الشَّرعِ لَيْسَ لَهُ وُجُوبُ
غَلُوتُم في دِيانتِكُم غُلُواً يَضيقُ بِبَعْضِهِ الشَّرعُ الرَّحيبُ
أراد اللهُ تيسيراً وأنتم مِنَ التَّعسيرِ عِنْدَكُم ضروبُ
وقَد حَلَّتْ بِأَمْتِكُم كُروبُ لَكُم فيهنَّ لا لَهُم دُنُوبُ
وهي حَبْلُ الزَّواجِ ورَقَّ حَتَّى يَكادُ إذا نَفَخْتَ لَهُ يَدُوبُ

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٤٣)

فالأمثلة الشعرية السابقة للشاعرين «بهار» و«الرصافي» يسهل دراسة آرائهما في المرأة. فإن رؤية «بهار» في المرأة تنقسم إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي الرؤية التقليدية الخالصة. فالمرأة في هذه المرحلة عند الشاعر شخصية ذات بواطن متعددة يختلف الظاهر منها مما يختفي، وهذا ما يجعل نوايا المرأة غير ما يظهر في أعمالها فتصعب معرفتها ومعرفة نزعاتها. فهذه الرؤية تذكر الإنسان بمصطلح «مكر النساء» التقليدي عند عامة الشعب. وهذه الرؤية واضحة أيضاً عندما يرى الشاعر شخصية المرأة شخصية رقيقة لطيفة.

فلا يريد الشاعر بذلك تبين مميزات النفسية بل يعترف بأنه لا يصدق مقدرات المرأة الاجتماعية التي تعترف بها الأفكار الجديدة ويرى المرأة متضجرة في صعاب الأمور التي تحتاج إلى المثابرة، محتاجة إلى حماية الرجال. بعبارة أخرى إنها في رأيه قلقة الشخصية واهنة العزم والجسارة متحفظة في الأمور سطحية الرأي ضالّة فيما تراه من المظاهر المادية. فمقياس عقلها في رأى الشاعر هو الجمال الظاهري والرائحة الطيبة والكلام الساحر اللين والصوت العذب. فهي أسيرة الحواس لامفر لها منها.

والواضح أنّ الشاعر يحلل شخصية المرأة تحليلاً نفسياً لا يخرق إطار التقاليد. فالمرأة في هذا الإطار تعيش كمديرة تنفيذية في زوايا بيت يترأسه الرجل وواجبها الأهم أمور الأسرة وتربية الأولاد.

أما المرحلة الثانية من رؤية «بهار» حول المرأة فهي مرحلة تعرّف الشاعر بالأفكار



الجديدة. فهو لا يصدّق دوىّ الحرّية للمرأة في المجتمع لتغلّب الآراء والعقائد التقليدية عليه. يرى دعوة المتجدّدين إلى حرية المرأة، محاولة الطامعين لإفسادها في سبيل أميالهم ومصالحهم. فيحذّرها من الوقوع في الشبكة المغرية لهذه الدعوات مشيراً إلى قصّة رجل يغرى امرأة ويفسدها في سبيل أهوائه. فهذه الرؤية إلى الأفكار الجديدة إلى جانب رؤيته التقليدية تجعل الشاعر لا ينسى في شعره الصفات التقليدية للمرأة حتّى حينما يدعوها إلى التعلّم واكتساب الفنون. فتعلّم المرأة في رأيه ليس سبباً في ارتقاء مكانتها الاجتماعية فحسب بل إنّهُ يكمل دلالتها وجمالها. بعبارة أخرى عندما يذكّر تعليم المرأة لا ينسى ما يستلهم منه الشاعر التقليدي من جمال المرأة ودلالتها رمزاً لصورة الشعريّة.

ورغم صمود المعارضين لدعاة حرّية المرأة والدفاع عن حقوقها تسرّبت الآراء الحديثة في المجتمع فتحوّلت ثقافة العامّة في المدن الكبيرة وفي تفكير المرأة وكلامها وأعمالها شيئاً فشيئاً. ثمّ إلى جانب هذا ازداد نشاط «بهار» السياسي واشتدّ اصطكاكه بالمجتمع ممّا أدى إلى اعتدال رؤيته التقليدية، فبدأت بذلك المرحلة الثالثة من مراحل رؤية «بهار» للمرأة. فالشاعر يشعر بدور المرأة الأساسي في تربية الجيل القادم. فنراه يدعو المرأة إلى اكتساب العلم والفن مع الأخذ بالعفة والحياء والاحتفاظ بالحجاب. فنجده يخرق الأفكار التي جبلت عليها، فيرجّح العلم على الحجاب دون رفض الحجاب فيعتقد أنّ العلم والمعرفة هما يصونان المرأة لا الحجاب فبذلك ينفي هذه الأفكار التي تنتهي إلى جهل المرأة بذريعة الصيانة عن حجابها. ففي هذه المرحلة نجد الأفكار المشتركة بين «بهار» و«الرفاعي». ومع ذلك لا يمحو مسحة الدين عن آثار «بهار». فهو يتألم من انتشار العادات الجديدة غير الملائمة مع الثقافة الدينية الوطنية المعروفة كتقصير النساء شعورهنّ وانعقاد الحفلات التي يختلط فيها الرجال بالنساء.

أمّا رؤية الرفاعي في المرأة فهي تختلف في أغليبتها عن آراء «بهار» فأراؤه لا تنطبق آراء «بهار» تماماً. فالسبب في ذلك أنّ الرفاعي كان من متقدّمي دعاة الناس إلى الأفكار الجديدة في العراق وكان في كفاح دائم مع الظروف السائدة على النساء، بينما كانت تغلب على «بهار» في أشدّ حالاته التجديدية رؤية تقليديّة يؤسس عليها

الشاعر الإيراني آراءه حول المرأة. فلذلك لانجد الرصافي أبداً يدعو إلى حبس المرأة في زوايا البيوت بل يرى انعزالها في البيوت ظلماً كبيراً عليها. كما يراها لاثقة للاستشارة خلافاً لما يراه «بهار» بأن المرأة عاجزة عن صعب الأمور.

كذلك إن الرصافي كان يدعو إلى الحقوق المتساوية بين المرأة والرجل ويعتقد أن تقدّم المجتمع تابع لارتقاء المرأة منزلة وتساويها الرجل شأنًا في مجال النشاط الاجتماعي. فكلٌّ من المرأة والرجل يشكل نصفاً من جسم واحد فإذا نقص كلٌّ منهما فقد الجسم قوامه الأحسن فبيّن لنا الشاعر بذلك تصديقه لمقدرات المرأة.

كما قلنا سابقاً إنّه يعتقد أن اعتبار المرأة ناقصة اعتراف بأن المجتمع الذي يديره الرجال ناقص فنقص المرأة ناتج عن نقص الرجال. ولكن «بهار» ينظر إلى المرأة بحيث يراها أسيرة الحواس محدودة العقل بالعواطف، وفلا يخطر بذلك إلى الذهن إلا أن «بهار» يؤيد فكرة نقص المرأة عقلاً وتفكيراً.

ثم إن «بهار» يتناول تعليم المرأة ويترك غيره من أمورها. أما الرصافي فإنه يعالج أمور المرأة معالجة شاملة فإنه يتحدث عن زواج البنات ويشير إلى التقاليد والعادات القديمة التي لم تترك مجالاً لها لاختيار زوجها. فهي مرغمة على العيش مع رجل لاتعرفه أو لم تره من قبل دون أن تشعر بمحبة تجاهه. فالشاعر يرفض هذه العادة السيئة ويرى المحبة أساساً لتشكيل الأسرة ويؤيد ولايستنكر فرارها من أهلها رافضة الزواج المفروض عليها.

أما الموضوع الذي تحدّث عنه الرصافي - كما مرّ - وتركه «بهار» هو الدفاع عن حقّ المرأة في العمل. فالشاعر كما ذكر آنفاً كان يصدّق مقدرات المرأة ولا يرى ارتزاقها بكّد يمينها عيباً لها. أما «بهار» فإنه لا يشير إلى هذه المشكلة كأنه لا يراها أو لا يريد أن يراها ويتركها كما هي.

النتيجة

ويتضح ممّا سبق أن الرصافي كان من المتقدّمين في الدّعاة إلى حرية المرأة والدفاعيين عن حقوقها، وأكثرهم تأثيراً بهما في المجتمع العراقي الحديث. أما «بهار» فإنه كان من



المتأثرين بالأفكار الجديدة في المجتمع الإيراني المعاصر. بعبارة أخرى إن الرفاصي كان عيناً من عيون هذه النزعات الجديدة حول المرأة ولكن «بهار» كان ممّن شربوا بجرعة أو جرعات من عيون هذه الأفكار الجديدة في إيران. فلذلك يتطرق الرفاصي إلى المشاكل الأصليّة والواقعيّة للمرأة مثل عدم الثقة بالمرأة في المجتمع، رؤية نقص المرأة، فقد الإمكانيات التعليميّة لها، الأسباب المانعة لتعليمها، فقد حقها للعمل، إكراهها للزواج، حرّيّة الرجال في طلاقها وسلب حق الطلاق منها.

فلذلك نرى الرفاصي يهاجم رجال الدولة والعوامل المؤثّرة في الفكرة السائدة على مجتمعه حول المرأة ليحلّ مشاكلها. فيرى المجتمع والجو السائد عليه آثماً فيما تتحمّله المرأة من الآلام والمصائب. فيدعوهم إلى تمهيد مجال نموّها وعلوّها. أمّا «بهار» فإنّه يخاطب المرأة نفسها فقط. فيطلب منها أن تحاول لارتقاء مكانتها الاجتماعية والعلمية ويغفل من أسباب تخلفها والأفكار والعادات السيئة حولها، فكأنّه لا يشرف على الجو السائد على مجتمعه، ذلك الجو الذي ضاق المجال كلّّه تجاه نموّها وعلو منزلتها.

وكما رأينا إنّ آراء «بهار» تقترب من آراء «الرفاصي» في المرأة حينما يتحدّث عن تعليم المرأة. فكلّ منهما يراها أمّا للجيل القادم ومكوّنة لمكانة المجتمع العلمية والاجتماعيّة. فيدعوانها إلى التعلّم ويرفضان أيّة ذريعة لتحرّيم هذا القسم الكبير والمؤثّر في المجتمع من التعلّم والتثقف ويعتقدان أنّ أفضل وقاية لها في المجتمع هي أن تكون واعية عالمة عارفة بما يجري حولها. إلّا أنّ الرفاصي لا يوافق «بهار» في حجاب المرأة. فإنّ الشاعر العراقي يدعو إلى حضور المرأة في المجتمع سافرة ويهجم على أبعادها عن الشؤون الاجتماعيّة بذريعة صيانتها، ويرى تحقير المرأة سبباً في تحقير الأجيال القادمة وتذليلهم. إذن لانجد في أشعاره من الصفات ما يأتي به «بهار» للمرأة. فلا يصفها بالتكبّر والتجميل والاضطراب والارتباك وضعف الشخصية وما إلى ذلك من الصفات.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

آدميت، فريدون. ١٣٤٠ ش. افكار اجتماعي وسياسي در آثار دوره قاجار. تهران: سخن.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٨٦م. *البيان والتبيين*. بيروت: دار الصعب.
بهار، محمد تقى. ١٣٦٨ش. *ديوان شعر*. تهران: توس.
الرصافي، معروف عبدالغنى. ٢٠٠٠م. *ديوان الرصافي*. بيروت: دار المنتظر.
عزالدين، يوسف. ١٩٦٥م. *الشعر العراقي الحديث*. بغداد: دار القومية.
الوردى، على. ١٣٧١ش. *لمحات اجتماعية من تاريخ العراق*. قم: انتشارات شريف رضى.



تحليل الثنائيات الضدية في شعر المقاومة اللبنانية

على طاهري*

ناصر قرهخاني**

الملخص

إن الأدب ظاهرة اجتماعية تتأثر بالواقع وتعنى بالفكر والرسالة وتلعب دوراً هاماً في توجيه الشعوب نحو قيم إنسانية سامية. ومن هذا المنطلق فإن شعر المقاومة اللبنانية كنوع من الأدب الملتمزم، يسعى لتحقيق أهدافه من خلال التركيز على الظروف الصعبة التي يعيشها الناس من ناحية؛ ويحاول أن يقدم ما أقصى عنده وما يستطيع أن يقوم به لإذكاء الثقة بالنفس وتعزير الذات من ناحية أخرى. فهو الأدب المعبر عن العمل من أجل تفجير الطاقات الإيجابية لمواجهة الظلم والعدوان والذي يحث على الأمل ويفتح آفاقاً واسعة للصدور والاستمرار بالمقاومة.

ف نجد شعراء المقاومة اللبنانية من جانب يصورون الدمار والاحتلال والألم والوجع تصويراً صادقاً، ومن جانب آخر يتحمسون لكرامتهم ويشيرون إقبال الناس إلى مقاومة الاحتلال ويستنهضونهم للدفاع عن القعيدة؛ فإذا لا يقل خطورة شعرهم عن سلاح المقاومين وهذه هي مهمة شاعر المقاومة الذي يرسم طريق الاستقامة للمستقبل و يحيى الأمل في قلوب المضطهدين والمظلومين ويفعّمها بالرجاء والنور.

هذه المقالة تلقي ضوءاً يسيراً على هذه المهمة الشعرية والوظيفة الاجتماعية عند شعراء المقاومة اللبنانية الذين فتحوا نوافذ للنور عن طريق عقد الثنائيات ومقابلة الضدين كالليل والنهار والآه والبركان والإذعان والملحمة والاحتلال والغضب والخيبة والأمل والموت والحياة الأبدية.

الكلمات الدليلية: شعر المقاومة، لبنان، الثنائيات، حزب الله.

١. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في همدان.

٢. مدرس بجامعة ابن سينا.

